وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

المرحلة: الثالثة

المادة: فلسفة التاريخ

التفسير المثالي للتاريخ

أ. د. مثنى عباس عواد

التفسير المثالي:

المثالي هو كل ما ينتسب إلى (الفكرة)، والفكرة تقابل في معناها: الواقع المادي الخارجي، ومن ثم فإن المثالي هو كل أمر يوجد في (العقل) أو الذهن بما أنه فكرة فحسب، ولا يوجد على أرض الواقع، لذلك فإن المعنى الذي يعطى أحياناً للمثالي، يرى أن (المثالي) مقابل لـ (الواقعي)، أو أن المثالي هو ما يجب أن يكون في مقابل ما هو كائن.

ويرى (بليخانوف) أن (المادية) هي النقيض المباشر لـ (المثالية)، فالمثالية تحاول تفسير ظواهر الطبيعة، وكل شيء فيها بإرجاعها إلى خصائص روحية فحسب، بينما تسعى المادية نحو إظهار اتجاه مخالف تماماً يعطي المادة دوراً رئيساً في عملية التفسير هذه، فحتى الظواهر النفسية ترجع لدى الفلاسفة الماديين إلى خواص المادة وطريقة انتظامها في جسم الإنسان.

وبناء على ذلك يمكننا القول إن التفسير المثالي للتاريخ يعني التفسير الذي لا يعزو حركة التاريخ إلى دوافع مادية واقعية كالدوافع الاقتصادية والطبيعية (الجغرافية)، والفردية (البطولية)، والاجتماعية (البشرية)، بل يفسر حركة التاريخ بدوافع مثالية، أو ميتافيزيقية ليس لها وجود مادي أو واقع خارج الذهن أو الفكر.

وكان للفلسفة المثالية، في واقع الحال، وجود قبل أن تمتد مباحثها في القرن التاسع عشر لتشمل موضوع فلسفة التاريخ، وكانت تلك المباحث تتعلق بنظرية الوجود ونظرية المعرفة ومواضيع أخرى كالقيم والجمال، فضلاً عن مجالها الحيوي الأساسي المتمثل بالميتافيزيقيا ومباحث الفلسفة المحضة (Pure Philosophy).

ولعل أفلاطون كان أقدم فيلسوف مثالي تبنى المثالية (الموضوعية)، إذ كان يرى أن الجزئيات الحسية ليس لها وجود حقيقي، وإنما صورها النوعية هي ذات الوجود الحقيقي لها، فصورة الإنسان هي الحقيقية، بينما الجزئي المحسوس من بني الإنسان، كزيد وعمرو، ليس له وجود حقيقي إلا بمشاركته في صورة النوع الإنساني.

وقد برز في العصر الحديث فلاسفة مثاليون كثيرون كان في مقدمتهم المثاليون الألمان، وبصورة عامة فإن المثالية، التي انطلق منها التفسير المثالي للتاريخ، تعرف من قبل (إيمانويل كنت) بأنها: النظرية التي تقرر إن وجود الأشياء في المكان خارج العقل هو إما وجود مشكوك فيه، أو زائف أو مستحيل.

ويبدو أن الفلسفة المثالية التي أنتجت التفسير المثالي للتاريخ على يد الفيلسوف الألماني هيغل، كانت تسير بخطوات مطردة على يد الفلاسفة الألمان الذين صاغوا أشد أنواع الفلسفة المثالية الميتافيزيقية تفصيلاً في التاريخ الحديث، وكان في مقدمة هؤلاء إيمانويل كنت (ت ١٨٠٤م) الذي يصفه عبد الرحمن بدوي بأنه "أعظم فلاسفة العصر الحديث، ويأتي بعده المؤسسون الألمان الثلاثة للفلسفة المثالية، وهم فخته (ت ١٨٤١م)، وشيلنغ (ت ١٨٥٤م) وهيغل (ت ١٨٣١م).

وقد وصف هيغل فلسفته – التي تمخض عنها التفسير المثالي للتاريخ – بإجمالها بأنها مثالية ذاتية أو مطلقة، موضحاً ذلك بقوله: "المثالية هي القول بأن المتناهي مثالي، والمثالية في الفلسفة معناها ما يلي فقط: معناها عدم الإقرار بأن المتناهي موجود حقيقي، وكل فلسفة هي مثالية في جوهرها، أو على الأقل تقوم على مبدأ المثالية".

وكان التفسير المثالي للتاريخ، بل ومجمل الفلسفة المثالية التي انتعشت في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يعبر، فيما يبدو، عن شكل من أشكال الرد على الفلسفة العقلية التي سادت في القرن الثامن عشر، وهي الفلسفة التي كانت تغزو حركة التاريخ إلى نظريات وعوامل عديدة تستند إلى تفسيرات حسية ومادية وعقلية مختلفة ليس من بينها تأثير (العناية الإلهية)، ذلك أن تلك التفسيرات كانت تتجاهل هذا المؤثر أو المحرك (الديني) لأحداث التاريخ، أو تنكره إنكاراً تاماً، أو تجعل أهميته غاية في الضالة في أحسن الأحوال، على أن القرن التاسع عشر قد شهد إلى جانب التفسير المثالي، ظهور تفسير آخر مقابل له هو التفسير الطبيعي للتاريخ، وهما تفسيران متعارضان استغرقا سنوات القرن التاسع عشر منذ بداياتها.

وكان التفسير الطبيعي لأحداث التاريخ الجزئية يستند إلى فلسفتي جون لوك، وديفيد هيوم وانعكاسهما على التاريخ الذي يبدأ بالقول إن المعرفة التاريخية تقوم على المادة التاريخية لا على عقل المؤرخ، وأن وقائع التاريخ هي أحداث واقعية تجريبية لا عقلية تأملية، ومن ثم انسحب، فيما يبدو، هذا التفسير الطبيعي للأحداث الجزئية على التفسيرات التأملية للتاريخ العام بما يضفي عليها بعداً طبيعياً (مادياً) مقابلاً للتفسير المثالي للتاريخ العام، وبصورة عامة فإن اتجاهي المثالية والمادية الفلسفيين استغرقا كما ذكرنا القرن التاسع عشر بأكمله، ففي النصف الأول منه سيطرت المثالية على الفلسفة، وفي النصف الثاني كان الاتجاه المادي هو المسيطر على الفلسفة والعلم معاً.

وقد تأثرت عملية تفسير التاريخ بطبيعة الحال بهذين الاتجاهين المتضادين، ويظهر هذا التأثير بوضوح في التفسير المادي (الاقتصادي) الماركسي للتاريخ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

للتفسير المثالي للتاريخ عند الغربيين صورتان رئيستان، تتفرع عنهما تفسيرات متعددة، أولاهما: تمثله نظرية العناية الإلهية التي صاغها الفكر الديني القروسطي على يد القديس أوغسطين (ت ٤٣٠م)، وهي تفسر حركة التاريخ تفسيراً لا يخرج حتى في تفصيلاته وجزئياته عن الإرادة الإلهية، إذ هي تسير تلك الحركة، وتدفع بها حيث تشاء وربما بمعزل كلي عن أية إرادة للإنسان، أو فعل مؤثر له في مسيرة تاريخه، أما الصورة الثانية فترتبط بالفلسفة المثالية وانعكاساتها على التاريخ، متمثلة بصورة رئيسة بفلسفة التاريخ عند هيغل.

بيد أنه قد تفرعت عن هذه الصورة وتلك للتفسير المثالي للتاريخ، تفسيرات تستند إلى الأفكار الرئيسة لتلكما الصورتين، فعلى سبيل المثال شهدت الحقبة التي راجت خلالها فكرة (المطلق) في الفلسفة المثالية، ظهور فلسفة مثالية مناظرة قريبة من فكرة العناية الإلهية، إذ يرى المؤرخ البلجيكي ألتماير (١٨٠٤ – ١٨٧٧) أن حركة التاريخ ترجع إلى الله تعالى، حيث يذكر في كتابه (مجموعة أبحاث في فلسفة التاريخ) الذي صدر سنة ١٨٤٥، أن الله في اتحاد مباشر مع كل فرد يوجهه في مسار حياته، وأن هناك تدخلاً إلهياً في مفاصل التحول البشري الكبرى في التاريخ تؤكده حقائق الماضي، وعندما تصل البشرية لاهثة ومنهوكة القوى إلى نهاية أحد تطوراتها، يمنحها الله أجنحة جديدة، ويدفعها على امتداد سبل جديدة، ويرى ألتماير أن هدف البشرية في حراكها التاريخي هو التسليم بوجود إله واحد، ووجود وطن واحد للجميع، تكون فيه محبة البشر ديدناً وقانوناً وحيداً.

أما تفسيرات التاريخ التي اعتمدت الصورة الأخرى للمثالية، البعيدة عن فكرة الله وتوجيهه لمسار التاريخ البشري، فكانت متعددة، منها التفسير الذي يقول إن (الأفكار تحكم العالم)، مما يمنح الأفراد، فيما يبدو، حرية واسعة في نهاية المطاف، ويرتب على أفعالهم دوراً كبيراً في تحريك أحداث التاريخ.

ومن هذه التفسيرات أيضاً ما ذهب إليه رالف أمرسون (١٨٠٣ – ١٨٨٢)، الذي يرى أن التاريخ يحركه (روح واحد أبدي عام)، إذ يقوم الوجود الفردي للإنسان، عبر هذه الفكرة، بالتوحد مع كل ما عداه من الناس، وهذا الروح أو العقل هو شيء مشترك بين أفراد الناس جميعاً، وما

التاريخ سوى أعمال هذا العقل، فنسيج الأحداث هو (الرداء الفضفاض) الذي تنتشر به الروح العامة، وهي روح موجودة في كل الأشخاص عبر حقب الزمان المتلاحقة، ومن الواضح أن أفكار أمرسون هذه شبيهة بأفكار هيغل كما سيتضح لنا.

يعد هيغل (١٧٧٠ – ١٨٣١) أبرز الفلاسفة المثاليين في العصر الحديث، وهو في هذا الخصوص ند لأفلاطون الفيلسوف اليوناني الذي تنحى فلسفته منحاً مثالياً واضحاً لاسيما في نظرية المعرفة، ونظرية الصور، فالصور عنده ماهيات فكرية ثابتة مقابلة للمحسوسات، وهو اتجاه مثالي تجريدي انتقده تلميذه أرسطو نقداً عنيفاً لما عرف عن أرسطو من نزعة واقعية اتسمت بها فلسفته، على الرغم من مثالية أستاذه ومن ثم كما ولد أفلاطون أرسطو الواقعي النزعة أو الذي تظهر فيه الواقعية بارزة رغم مثالية أستاذه، كذلك هيغل أولد ماركس المادي النزعة.

فلسفة هيغل المثالية وانعكاسها على التاريخ:

تقوم فلسفة هيغل بمجملها على مثالية قوامها تصورات عقلية تأملية ميتافيزيقية، فالمعرفة عنده تقوم على العقل بالدرجة الأولى، ولا تقوم على المحسوس الخارجي، والوجود الحقيقي للأشياء أو ما يمكن أن يكون حقيقة واقعة ليس هو المحسوس بل المعقول، وذلك كله يتفق مع الغاية الرئيسة التي يضعها هيغل للفلسفة، وهي فهم الواقع وعقلنته، أي جعله مقبولاً من قبل العقل، وجعل الواقع مقبولاً من قبل العقل يعني جعل الذات والواقع من جنس واحد، ويعني بعبارة أخرى تعقيل الواقع، أي أن يصبح كل ما هو واقعي معقولاً، وكل ما هو معقول واقعياً، وهذا ما كان يقصده هيغل من المثالية، وهو نفسه المعنى الحقيقي الذي يريده الفلاسفة لها.

والتصورات الميتافيزيقية لهيغل ترى أن الوجود واحد، ليس فيه كثرة ولا تعدد وما الذرات والأفراد والظواهر أو أية وحدات مستقلة أخرى سوى مظاهر خادعة لحقيقة الوجود التي يمثلها (الكل) أو (المطلق) بحسب تعبيره، وهذا المطلق لا يعتمد على شيء خارج عنه، فهو كل شيء على الإطلاق، وتتحد فيه الذات والموضوع، وعالم الواقع والمثال، أو الواقع والعقل.